بين ثنايا المحظورات

حُقُوقُ الطَّبعِ محفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: بين ثنايا المحظورات
تـأليـــــــف: نانسي سامي منير
القـطــــع: 14*20
تدقيق لغوي: رانيا محمد
سنـة النشـر: 2025
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النــاشــــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 29233 / 2025
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 669 - 2

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-669-2
9 789778 446692

بين ثنايا المحظورات

تأليف

نانسي سامي منير

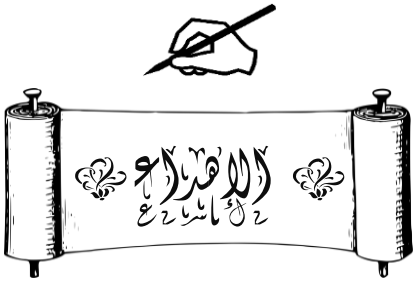

إلى كل مَن كان سببًا في دفعي نحو الأمام،

إلى مَن سقى بذرة الموهبة في داخلي لتكبر وتزهر نورًا يبدِّد العتمةَ،

إلى أصدقائي جميعًا، وإن لم أذكر أسماءكم، فمكانكم في القلب أوسع من الحروف.

إلى رواياتي وكُتبي، فهي أبطالي الذين منحوني الحياة،

وإلى عائلتي التي كانت يدي حين تعثَّرت، وصوتي حين خفت، منكم تعلَّمت أن أثقَ بنفسي بعد الخوف، وأحلم رغم الصعاب.

مقدمة

قالولي إني بعرف أكتب وأنا أدَّعي إني بعرف أكتب، قولت أحسم الموضوع وأجمع حكاياتي عشان تبقى بين أيديك دلوقتي، وتقولي أنت رأيك..

يمكن تقرأ نفسك بين سطوري، أو يجيلك شوية إلهام.

ويمكن كلمة تخبط في قلبك، يمكن تحس إن إنا إنسان ويمكن لا.

ويمكن لا، ووقتها اعذرني..

أيا كان إللي مستنيه، افتكر

إن اللي بين ايديك تجربة إنسان ترضيك أو لا ترضيك ف ده حقك.

رسالةٌ لأحدِهم

إمضاء

القارئ/ ----------

مالتي إنترناشيونال

التهمتني حجرةٌ مظلمة، ووجدت نفسي على سريرٍ يكاد يكون على مقاس جسدي تمامًا، كأنه صُنِع خصيصًا لأجلي!

أردتُ أن أنهضَ لأرى أين أنا، لكن كانت هناك **أساور** قد كبَّلت قدميّ!

بدأت أنظر حولي..

منضدة عليها **مقصَّات** وأدوات جراحة، وأثناء ما كانت عيناي تائهتين تبحثان عمَّا يدور حولهما، إذا بباب الغرفة يُفتَح ببطء..

وتتسلَّل إليه **يد شخصٍ ما**.

تسلَّلت عيناي بدورهما، يأخذهما الفضول لترى مَن القادم، فرأيت **رجلًا طويل القامة**، عريض المنكبين، يميل لونه إلى السمرة قليلًا، تُبرز عيناه نظارةٌ طبية، وكان يرتدي **معطفًا أبيض**.

قلت له بخوفٍ واضح:

ـــ أأنت طبيب؟

ابتسم وقال بهدوءٍ غامض:

ــ أظن ذلك.

ــ إذًا لماذا أنا هنا؟ ولماذا أنتَ هنا؟

ــ لأنتزع شيئًا ما من أحشائكِ، سيدتي!

تجمَّدت الكلمات في حلقي، وأصابني الهلع.

ما الذي سينتزعه؟!

وأيُّ أحشاءٍ يقصد؟!

لم أوافق يومًا على التبرُّع بشيءٍ من جسدي!

قطع صمتي، وقال ببرودٍ مميت:

ــ سأقتلع جسدًا آخر نشأ نتيجة خطأٍ ما داخل رحمكِ.

شهقت شهقةً كادت تسرق أنفاسي.

ــ ماذا تقصد؟!

ــ أقصد ما قلته لكِ.

صرخت فيه:

ــ لم أخطئ مع أحد، ولم يمسسني بشر!

مَن أتى بي إلى هنا؟ وكيف؟!

تمنَّيت لو كان ما يحدث **كابوسًا**، ولم يكن لدي مانع أن يشاركني الطبيب كابوسي؛ فهو وسيم، ولا بأس به.

ظلَّ يسألني أسئلةً غريبة لا أفهم مغزاها.

ثم قال فجأة:

ــ يبدو أنكِ من عائلةٍ مرموقة، فكيف فعلتِ هذا الفعل المشين؟

أصابتني الدهشة!

ــ وكيف عرفت أني من عائلةٍ مرموقة؟

ابتسم وقال:

ــ كشفنا عن هويتكِ من حقيبتكِ، إنها في الاستقبال.

أنتِ على قدرٍ كبير من الذكاء يا آنستي.

ــ وماذا ستفعل الآن؟!

قال ببرودٍ متناهٍ:

ــ أجهِّز لكِ استنشاقًا.. لا تخافي، سيأخذكِ إلى ثباتٍ عميق، ويسافر بكِ إلى عالمٍ آخرَ.

شيءٌ بداخلي كان يؤكد لي أنه لن يفعل شيئًا، وأن هناك **خطبًا ما يحدث،** لكني أجهله، فالغرفة خالية من أيِّ ممرضة أو طبيبٍ مساعد، ولم يكن سوى هو، الطبيب الوسيم الغريب الأطوار، اقترب مني محاولًا الكشف عليَّ، فأمسكت يديه بقوةٍ، ونظرت إليه بتحدٍّ صريح:

ــ اسمع أيها الطبيب، أنا لا أعلم مَن أتى بي إلى هنا، وربما خُطِفت أو خُدِّرت، لا أبالي!

لكني واثقة أنني لا أحد لمسني، ولا يجرؤ أحدٌ أن يفعلَ ذلك، وفي كل الأحوال.. لن تلمس حتى **هدب ثوبي**.

نظر إليَّ مبتسمًا لإصراري، ثم فجأةً..

دلف فريقٌ كامل من الأطباء والمساعدين وهم **يصفِّقون لي**، وتقدَّم رجلٌ وقور، بدا واضحًا أنه المسؤول عنهم جميعًا.

قال بصوتٍ رسميٍّ:

ــ ستستلمين عملك الجديد غدًّا.

ــ ماذا؟!

ــ تم قبولكِ لأنكِ اجتزتِ المقابلة بنجاح، لقد وُضِعتِ تحت ضغطٍ نفسيٍّ وعصبيٍّ، ومع ذلك لم تفقدي السيطرة على نفسك، نحن الشركة الوحيدة في العالم التي تُجري **المقابلة عمليًا** لا نظريًا فقط.

صمتُّ لحظة، ثم طلبت أن يفكّوا قيودي..

تقدَّمت نحو المدير، وغرزت في صدره المقص الذي كنت خبأته في ملابسي، وهمست في أذنه:

ــ أنا لم أنجح في المقابلة، بل أنت من نجح في استفزازي، ليتني كنت أخطأتُ وحملتُ طفلًا في أحشائي، ولا أن أسمع منك هذا الهراء!

ثم فررتُ هاربة.

نانسي سامي

ثلاثون ثانيةً للأبدِ

كنتُ سأخرج خارج المصعد حينما وجدته، لكني تراجعت؛ فهذا سيجعله يثق بأنه أكثر ثباتًا مني.

شخصٌ مغرور، دائمًا يحب أن يتباهى بوسامته أمام المرآة.. وما إن رآني في مرآة المصعد، التحما حاجباه، وسارع أحدهما بالنزوع فَوْقًا.

ثم سارعتُ بالدخول وأنا شامخة الرأس، منفعلة العقل، حانقة القلب، وظل يراودني سؤال: كيف سأتحمَّله؟! كيف سأحتمل أنفاسه التي كانت يومًا تحيِّيني؟ كيف سأحتمل إلى أن أصلَّ إلى الدور المقصود؟

أتمنى أن يرحلَ هو في أقرب دور، وليكن الدور الأول حتى أتخلَّص منه.

وفجأةً، وبطريقةٍ سينمائيةٍ استفزازيةٍ، وقف المصعد حينما كنت أحارب أفكاري أبارزها في كيفية تحمُّل وجودي مع هذا الإنسان داخل مستطيل لا يتعدى المترين..

هل هناك أحدٌ ما طلبه؟

لا أعتقد، فقد اهتز ثم توقَّف فجأة.

ترى هل هذا عطل؟!

كل هذه الأسئلة تناولها عقلي، ثم تملَّكني الرعب، وأصبحت أنفاسي تتصارع كي تخرج خارج هذا الصندوق الحديدي.. فأحدثت صخبًا وضوضاءً؛ كي يسمعني أحدٌ ويأتي لينقذني من وضعي الغريب؛ مصعد عالق وشخصي المكروه.

أي ذنب ارتكبتُ ليضعني الله في هذا المأزق؟

وظللت أخاطب نفسي: "يا ربي، ليس هذا ما قصدته، لماذا تعاندني؟!"

لا بُدَّ لي أن أهدأ؛ حتى أستطيع التفكير فيما يجب أن أفعلَ.

وجدته جلس أرضًا يبحث عن شيءٍ ما داخل حقيبته، وقال لي: "اطمئني".

قلت: "لست خائفةً".

ضحك بطريقةٍ أثارت غضبي، وأخرج من حقيبته شيئًا حديديًّا، ونظر إليَّ.

لم يترجم عقلي تلك النظرة، إلا أنه قرر الانتقام مني؛ فكرهه لي يفوق كرهي له.

نظرت إليه ووجَّهت له كلامي بحدة: "أمن الرجولة أن تمتلك شيئًا تبارز به فتاة لا تملك سوى يديها؟!"

نظر إليَّ نظرة استخفاف، وهمَّ بالوقوف، ارتجفت قدماي، وجعلت يداي تدافعان عن وجهي، ثم..

وجدته يحاول فتح باب المصعد العالق.

شعرتُ بحرجٍ كبير لتسرُّعي في الحكم عليه، لكني ما زلت أريد أن أقللَ من شأنه..

هنا قررت استفزازه، فضحكت بسخريةٍ على ما يفعل، ولكن الله أراد نصرته بكل الطرق، فوجدت باب المصعد يُفتَح!

ولحسن الحظ أن عطلَه أتى في دورٍ من الأدوار ليس عند حائط سَدٍّ، وإلَّا كانت ستكون هنا نهايتي. ثم رمى القطعة الحديدية أسفل قدمي، وقال لي

بتهكُّم: "الآن المرأة التي كانت لها يدين فقط أصبح برفقتها قطعة حديدية؛ فلتَرَنَّي قوتها ماذا ستفعل بها!"

وتركني ومضى.

الصفقة

لا أعلم ماذا يعني "بيت"!

ما هو شعور ساكنيه؟

لم أتذكَّر نشأتي، وهل سكنتُ سابقًا في بيتٍ قبل أن أستوطنَ هذا الرصيف؟!

أنا هنا منذ عام ٢٠٠٠، لا أعلم كم عمري، ولا أعلم شيئًا عني، سوى أن هناك بعض المارَّة يشفقون على حالي، ويأتون لي ببعض الطعام مرة، أو يدسِّون المال في يدي مرة أخرى.

حينما وقفت هاتان الفتاتان بجواري، وتحدَّثت الأولى إلى الثانية، وأخذت تسرد لها يومها وكم كان مُرهقًا في العمل، وأكملت الثانية الحديث بأنها تشعر بالتعب، وتودُّ أن تذهبَ إلى منزلها لتنال قسطًا من الأمان والطمأنينة، وتختلي بغرفتها..

كنت أودُّ لو أسألهما: ماذا تعني لكما فكرة "البيت"؟

بماذا تشعران داخل غرفتكنَّ؟!

لا أعلم، هل بالفعل هناك راحة حين تكون محاطًا بأربع حوائط وحريتك مقيّدة داخلها؟!

ماذا لو تبدَّلت أماكننا، وأصبحتم مكاني في هذا المتَّسع من الكون، تستنشقون هواءً ربانيًا، وترون مواقف كثيرة، ويظهر أمامكم بشر مختلفون، وتجمعون الكثير من نظرات الشفقة، وأحيانًا نظرات الاشمئزاز..

هل ستشعرون حقًا بهذا الإرهاق أو التعب؟!

وفي أثناء تفكيري، أتاني أحدهم بثوبٍ ثقيلٍ يحمي من برد الشتاء، وسألني:

"أتريد أن تسكنَ منزلًا بمدفأةٍ يشعُّ منها النار، وتنثر دفئها ونورها الهادئ أرجاء المكان، وأرضها خشبية تملأك أمانًا وراحة، وإضاءات صفراء تكسو المنزل فتريح عينيك؟ أم أنك تحب الطرقات وتشرُّدها؟"

لم أعلم ماذا سيكون المقابل أمام عرضٍ هائلٍ مثل هذا، فقد طُلِب مني ألَّا أسأل عن شيء قبل أن أعلنَ اختياري.

وافقت أن أذهبَ معه لأرى بعينيَّ ما كذَّبه عقلي، وبالفعل.. كما وصف هذا الغريب الأطوار.

وهنا تجرَّأت وسألته:

"ماذا تريد مقابل سكناي في منزلٍ كهذا؟"

أخبرني الغريب أن المطلوب هو التنازل عن فصٍّ من فصوص كبدي، لينقذ حياة ابنه، إن توافق ذلك من الناحية الطبية، وإن لم يكن.. فسيعود بي حيثما أتى.

حارسُ الحكاياتِ

واقفة في شباك قاعة قصر الثقافة إللي بحضر فيه الندوات، وكان واقف جنبي عم أحمد، بحب أول ما أوصل أدور عليه وأقعد معاه، بنفضل نحكي كتير، بحس بأبوته ليا وده شيء أنا فقدته زمان بموت ببايا،

الشباك الكبير ده بيطل على جنينة جميلة وواسعة، وفيها واحد شغل دماغه صح، واستغل وسع الجنينة وعمل زي محل صغير كده، وبيبيع فيه مشروبات سخنة وساقعة وماية معدنية تجري الريق، فيه كام كنبة خشب محطوطين في الجنينة.. ويا سلام بقى على قاعدة الصحاب الرايقة أو اتنين حبيبة قاعدين سوا وأيديهم في أيدين بعض،

بس الأجمل من كل ده

شوفت واحد عجوز لابس بدلة من بتوع زمان أوي، إللي هي بدلة نص كم بزراير وبنطلون قماش من نفس اللون، وحاطط على رأسه (شابوه)، وحاطط إيده الشمال على ضهر الكنبة، وكانت قاعدة جنبه واحدة ست،

اتخيل أنها مراته كأنه في حالة نشوة وبينهم حنو غريب برغم الزمن إللي حفر تجاعيد على وشوشهم وأيديهم، بس في الحقيقة دي مكانتش مجرد تجاعيد دي سكك حياتهم إللي مشيوها مع بعض، والأزمات إللي وقعوا فيها وقدروا يتخطوها سوا، راميين كل هم وتعب تحت رجليهم.

وإللي زاد المنظر جمال فوق جماله إن البحر كان قدامهم، السما طبعت لونها على لون البحر، وانصهروا سوا، وكأنها رامية نفسها في حضنه، مش بس كده دا كان فاتح دراعاته مستني الشمس عشان ياخدها في حضنه وينام، أصل البحر ميعرفش ينام غير وشمس حبيبته في حضنه.

اسدلت جفوني وغوصت في قلب البحر، اتسحبت بشويش عشان أشوفه بيعمل إيه، لقيته هادي، والشمس كمان كانت هادية وكانت مسكوبة على حركة الماية البسيطة، فتعكس ضوءها كأنها لآليء عايمة على وش البحر.

نزلت بعيني تاني على الجنينة، لقيت بنوتة صغيرة هدومها بسيطة جدًّا، وألوانها مش متناسقة بس كانت ألوان مبهجة، أخضر وأحمر وبنفسجي،

وشعرها مش متسرح ومنكوش خالص، وقاعدة على الرصيف مقرفصة شوية، وبتترفج على إللي بيلعبوا راكت وكلها يأس في إن حد ممكن يشاركها اللعب، مع أنها كانت تتمنى أوي إن حد ياخد باله منها ويقولها تعالي العبي، خدي المضرب وجربي تحدفي الكورة جامد.

فضلت مستنية شوية، وبعدين ظهر بنتين شبهها بس أكبر منها معرفش أخواتها ولا قرايبها ولا صحابها، واحد من لعيبة الراكت نده عليهم عشان ياخدوا مضارب ف راحوا كلهم أخدو مضارب، والبنتين أخدوا كورة، وصاحبتنا الصغيرة دي أخدت لوحدها كورة ومضرب، بس يا عيني رجعت قعدت نفس قعدتها، مع إن كان معاها مضرب وكورة، بس هتعمل بيهم إيه ما الطرف إللي هيشاركها متعة اللعب مش موجود.

البنتين قرروا يلعبوا سوا، ودي فضلت على دكة الاحتياط برة مستنية لما حد منهم يتحنن ويشوفها.

لما كانت الكورة بتقع برة وتروح واحدة من الكبار من إللي بيلعبوا عشان تجيبها، كانت صاحبتنا الصغيرة تجري جري عشان تلحق تلعب مع البنت التانية الكبيرة ، ويادوب ماتلحقش تلعب كورتين وتلاقي البنت إللي بتجيب الكورة رجعت تاني، فتقوم راجعة لدكة الاحتياط تاني

فضلت باصة عليها، وعيني كانت بتسرق وتخطف نظرات للناس إللي بتلعب هوايتي المفضلة وكنت منبهرة بشطارتهم وقوة ضربهم للكورة ومهارتهم في إنهم يحافظوا على الكورة بدون ماتقع رغم قوة ضربات الشوط وعظمة الصد، ومن ضمن الناس الكتير إللي بتتفرج

لقيت الشاب ده واقف مركز عنيه عليَّ، كان بيتفرج الأول على الماتش إللي شغال، وبعدين اتوجه نظره للشباك إللي كنت واقفة فيه، ماعرفش حسيت جسمي اتكهرب بمجرد عينه ماجت في عيني، ودخلت جري لملمت روحي ونفسي وخرجت للشباك تاني لقيت البنت قاعدة حاطة إيديها على خدها، والدنجوان أفندي أول ماشافني فضل مركز، وبصيتله وشاورتله بعنيا على البنت، بس هو مفهمش، شاورتله بإيدي عليها لحد

مافهم إني عوزاه يلاعبها، ففهم وراح للبنوتة، وفضل يلعب معاها على أدها، وكانت مبسوطة أوي أوي، والفرحة في عنيها وعنيا لمعت وبانت.

دخلت من الشباك بقى واطمنت وفرحت لفرح البنت،

وبعدها فوجئت بالدنجوان طلع يحضر معانا الندوة وجه قعد جنبي وقالي:

- مبسوطة؟

- نعم؟

- قلبك حلو أوي أنه يركز مع بنت غلبانة زي دي ويدور إزاى يفرحها ويحس كمان بإللي هي محتاجاه من غير ولا كلمة .

بصيتله من فوق لتحت وسكت.

- مستنيكي عشان نشرب حاجة سوا بعد الندوة، فعليت صوتي شويه.

- نعم، أفندم، أنت مجنون يابني؟!

- أومال فرحة البنت ماتساويش فنجان قهوة معايا، وأنتِ عارفة مفيش حاجة من غير مقابل، أومال أنتِ فكرتيني لعبت مع البنت ليه، وبعدين مانتِ كنتي بتبصي عليا وشكلك كان معجب يعني هتستعبطي ولا إيه، خوفت منه جدًّا، واخدت بعضي وطلعت من أوضة الندوة، وقولت أمشي ع طول لأحسن يلحقني ومش عارفة هيعمل معايا إيه.

وصلت للباب إللي بيطلع على الجنينة من المسرح على امل استنجد بحد لغاية ما اطلع برة خالص واروح بيتي بس للاسف المسرح كان خالي الوفاض.

وانا على عتبة الباب لمحت البنت لقيتها بتضحكلي، ابتسمتلها ولسه همشي لقيت إللي مسكني من ايدي وشدني وكان باين عليا الفزع والخضة، سحبت إيدي بقوة منه

وبلف ورايا لقيت البنت في حالة ذعر ومعاها ولدين تانيين واقفين قدامي بيقولولي رايحة فين يا حلوة، على طريقة أفلام الأبيض والأسود القديمة.

قولتلهم ده بيضايقني، فالولد إللي مع البنت قاله: عجباك؟!

زاااد خوفي وتوتري دا أنتم عصابة بقى، وبصيت للبنت بصة ترجي لقيتها لا حول ليها ولا قوة، وفجأة ظهر عم أحمد مسؤول الأمن في قصر الثقافة، وحط إيده بقوة على كتف الدنجوان، ووجهلي كلام

وقالي: "إيه يا بنت أبوكي في حاجة معاكي ولا إيه؟! مين مزعلك من العيال دي؟!"

طبعا القلق بان على الشباب قولتله: اه الحقني أنا مش عارفة الناس دي عايزة مني إيه، ولسه هكمل كلامي كانت عصاية عم أحمد في الهوا وقبل ما تهوى عليهم طاروا زي الغربان.

"تعالي خدي نفسك جوة يا بنتي ومتخاقيش."

أخدني عم أحمد، وقبل ما ندخل باب القصر تاني، ممكن تخبوني معاكم؟!

استغرب عم أحمد سؤال البنت

– ليه؟!

- خايفة منهم؟

- خايفة ليه؟ دول مين دول؟

- أخواتي.. وبيستخدموني اجيب البنات عشان شغل كبير اسمه دعارة!

اتملَّكني الخرس أنا و عم أحمد.. ولقيت دَمعة وقفت متحجرة في عينيه.

في الأسبوع التالي روحت عشان أحضر الندوة وسألت على عم أحمد اصل مش متعودة ماشوفهوش، مانا قولتلكم القاعدة ماتحلاش إلا بيه، وعرفت إن تم فصله من شركة الأمن إللي بيشتغل فيها لتدخله في شيء لا يعنيه.

حين استمعتْ لها روحي

كانت تستمع دائمًا لصديقتها، تمنَّت لو حدث العكس واستَمعت هي لها يومًا، وحين حدث ما أرادت، كانت قد فارقت الحياة.

رحلة إلى ذاتك

كان الاختيار مستحيلًا، كيف أن يختارَ المرء بين هذا وذاك؟

وقفت كين تنظر حولها، لا تعلم أين هي، هي فقط وجدت نفسها في المنتصف، متعلِّقة بين جلائها وغموضها..

تبحث عن سنين طواها الزمن، وأيام اندثرت تحت رماد الذكريات.

كين كانت تؤمن بنفسها رغم إحباطات الجميع، أثبتت نجاحها في عملها، وبدأت الترقيات تلاحقها وتتهافت عليها، ليس فقط لتفانيها في العمل، بل لباقتها، وحسن حديثها، وجمالها الرباني الأخَّاذ.. جميعها أشياء دفعت بها إلى الأمام.

لكن هذا ما لم تكن ترجوه، فهي متمرِّدة على كل شيء..

أو دعنا نقول إنها متمرِّدة على كل ما هو روتيني، ويندرج تحت قائمة سُنَّة الحياة.

داخلها أراد الحياة بكل فنونها ومغامراتها وجنونها، لكن كل مَن حولها أرادوا لها المعتاد.

خانت عهدها ونفسها، واتجهت صوب آرائهم وحديثهم.

أين هي؟!

أين وعودها لنفسها؟!

وما أبشع خيانة المرء لنفسه!

كخيانة أوراق شجر الخريف لأغصانها وتركها وحيدة.. هكذا فعلت كين بنفسها.

ذات يوم جلست كين مع والدها وتحدَّثت إليه، وكان الأسى يخرج كالسهم من بين كلماتها، وأخبرته أنها لا تجد نفسها في تلك الحياة التي تغلِّف حريتها وتكبِّلها.

أعلمته أنها قررت أن تبحثَ عن الحقيقة، وأن تجدَ ما يحققها.

- "رغم كل تلك النجاحات التي حققتِها في عملك وازدهارك وتفوّقك فيه؟!"

سألها والدها متعجِّبًا.

أخبرته أنَّ الحياة ليست فيما يحققه الإنسان لغيره من نجاح، بل فيما يرضيه هو.

هي لا تريد أن ترى العالم بأعينهم، فقناعتهم الخاصة تسحق قناعاتها.

ولذلك قررت أن تتخلى عن وظيفتها لشخصٍ آخر يحتاجها أكثر منها، وهي ستتجه صوب قلبها وما يريده من مرتفعات فوق الجبال، والسفر بين القارات، وكتابة قصص تعيش داخلها، وتتمتع بالخيال الذي يكسوها، وترسم اللوحات التي تعبّر عن نفسيتها.

فتتوالى عليها المعارض، ويتهاتف عليها الفنَّانون ليبتاعوا لوحاتها وقصصها، ومن ثم تنطلق وتحلِّق في سماء العالم، وتفرد أجنحة الحرية.

بدأت بالتحليق فوق بعض الدول العربية، لكنها لم ترَ سوى دخانٍ كثير، ربما نتيجة حريق أو انفجار.

رأت قتلى وموتى، رأت أطفالًا صغارًا يبحثون عن ذويهم، رأت أمهاتٍ يبكين على فقدان أبنائهن وعائلاتهن، رأت رجالًا ينوحون، ورأت تشرُّد الكثير من الأطفال.

شاهدت بلادًا تحرق أنفسها، وخارت قواها بيد حكامها.

ذهبت في طريقٍ آخرَ لترى جمال الدول الأوروبية، رأت ما سرَّ أعينها وأبهرها، لكنها أرادت أن تعرفَ المزيد، وحينما بحثت عمَّا يخفيه ذاك الجمال، وجدت أن بعضهم لها يدٌ واضحة في ذاك الخراب الذي حلَّ بالعالم.

رأت أيادي قد تلوَّنت بلون الدم، وقلوبًا انتُزعت منها الرحمة، وعيونًا حملت صور صراخ أطفالٍ انتُزعت منهم طفولتهم وبراءتهم.

فاقت في هلعٍ من هذا الكابوس الغامض، وهمَّت بارتداء ملابسها سريعًا، فقد تأخَّرت عن عملها، وهذا ضد ميثاقها ومسؤوليتها، فهي تحب الالتزام.

أخذت تفكِّر طيلة الطريق فيما يخصُّ ذاك الحلم، وما الرسالة التي يحملها إليها، وتوصَّلت إلى أنها لن تخن نفسها، ولن تغش الأمانة التي خُلِقت لأجلها.

ميراكل

لا أحد يعلم، أصرخةُ هذا الطفل كانت لأنه ترك رحم أمُّه، أم لما سيواجهه في الحياة؟

ربما لأنه غادر موطنه، وأمانه، ووحدته الدافئة؟

أم لأنه يعلم مصيره البائس التعس الذي سيلازمه؟!

وضعت **لاما** طفلتها، وكانت ولادتها متعسِّرة، وحدتها أيضًا كانت أقسى من لحظات شعورها بألم الولادة، وحيدة هي في الحياة، دون أهل، دون أصدقاء، حتى مَن فعل فعلته معها تركها وهرب.

شعرت وكأن الجميع ينفر من وجودها بينهم، وأن الموت يأتيهم لينتشلها منهم.

قضت ليلتها في تلك الغرفة مع سيدةٍ حنَّت عليها، واستقبلتها في عُشَّتها الصغيرة، فقامت بعمل اللازم لها ولطفلتها، وراعتها، وأطعمتها، وداوت جراحها.

لم تكن **لاما** تتوقَّع أن ما زال هناك خيرٌ في العالم، كيف لغريبةٍ لم تعرفها أن تقفَ معها، في حين أن كل مَن هم من دمها تخلُّوا عنها؟

عاشت **لاما** مع تلك السيدة، وكانت تترك عندها **لين** – ابنتها – وتخرج لتأتي بقوت اليوم لأسرتها الجديدة.

وحينما أكملت **لين** عامها الثالث، رحلت السيدة العجوز، وصعدت روحها إلى بارئها.

تركت **لاما** منزلها، وذهبت لتسكن مكانًا آخر، لكنها فشلت في أن تجدَ مأوى، فقررت الذهاب إلى أقاربٍ لها من الدرجة البعيدة، ظنَّت أنها ستجد عندهم الأمان.

تم استقبالها بشكلٍ لا بأس به، وطلبت منهم أن تتركَ **لين** معهم، ووعدتهم بأنها سترسل المال كل شهر لحاجتهم، وستعود من وقتٍ إلى آخرَ لتطمئن عليها، رحَّبوا بالفكرة، وقرَّروا أن يستضيفوها.

ودّعت **لاما** طفلتها، وأخبرتها أنها ستكون بأمانٍ هنا.

أُغلِق الباب خلف **لاما**، وأُغلِقت معه كل ابتسامةٍ خادعةٍ علت الشفاه، وبدأت نوايا **زين** و**ليلى** زوجته تطفو على السطح، خلعا عن **لين** ثوبها الجميل ليُلبساه لابنتهما، وأخذت **ليلى** الملاكَ البريء لتجعلها تمسح الأرض، وتجمع القمامة، جعلتها عبدةً صغيرة، وألبستها ثوب الذلِّ.

لم تتغافل **لاما** يومًا عن إرسال الأموال الشهرية، ظنًّا منها أنها توفِّر حياةً كريمة لابنتها، ومع مرور الوقت، ازداد **زين** في طلب الأموال، بحجة الملابس تارة، والعلاج تارة أخرى، والألعاب لتعيش **لين** طفولتها كما يجب.

وما كان على **لاما** إلا التنفيذ، لكن عملها لم يعُد يغطي تلك المتطلبات الباهظة، فلم تجد سبيلًا سوى أن تبيع جسدها مقابل بعض المال.

شعرت بكسرةِ روحٍ، وتحطيمِ قلبٍ، وذهبت إلى حيث لا أحد، نظرت إلى السماء، وصرخت من أعماقها:

"لماذا يا ربِّي؟!

لماذا رفعتَ يدك عني؟!

لماذا تركتَني في العراء؟

لماذا لم تقدِّم لي القليل من المعونة؟"

هدأ صوتها، وتحوَّل إلى انهيارٍ داخلي، وأصبح بكاؤها صدَّاحًا يهزُّ السكون:

"لماذا يا ربِّي؟ لماذا لم تختر لي بعض الراحة والسكينة؟

لماذا تركتَ قدمي تنزلق في الوحل؟"

وضعت وجهها بين كفَّيها، وظلَّت تبكي حتى غلبها النعاس في صقيع الردى.

وفي الصباح، كانت عذوبة النسيم تملأ الكون حولها، استيقظت على يدٍ تربِّت على كتفها، فرأت رجلًا طويل القامة، وسيم الوجه، شَعره الأسود يتطاير مع كل نسمة هواء تمرُّ عليه.

ظنَّت أنه يريد منها ما أراده الجميع، فأخبرته أنها مريضة، ولن تستطيع الذهاب معه إلى أي مكان، لكنه لم يكن يريد منها شيئًا، سوى أن يساعدها ويُعيدها إلى منزلها.

قدَّم إليها يده لتتكئ عليها وتقاوم ضعفها، وأخذها إلى مطعمٍ لتتناول الإفطار بنهمٍ شديد، ظلَّ ينظر إليها وهو يبتسم، دون أن ينطقَ بكلمة.

سألته متعجِّبة:

"لماذا تفعل هذا معي؟"

فقال بهدوء:

"لا أعلم.. القدر ساقني إلى طريقك."

قالت برجاءٍ خافت:

"أريدك أن تذهبَ بي حيث ابنتي، هل تستطيع؟"

ـ "هيا بنا، ولكن في الطريق أخبريني عنك."

استقلَّا سيارته الفارهة، وبدأت **لاما** تروي له قصتها المؤلمة، وقبل أن يُكمل الحوار، كانا قد وصلا إلى منزل **زين**.

وكانت المفاجأة التي أصابت **لاما**.

لين كانت تغسل عربة **زين** التي ينقل عليها الأشياء القديمة، وتقف **ليلى** بعصا طويلة تضربها إن أخطأت.

لم تشعر **لاما** بنفسها إلا وقد انهالت على **ليلى** ضربًا حتى أفقدتها الوعي، ثم استيقظت من كابوسها، وهي تلهث، وتستعيذ بالله من ذلك الحلم اللعين.

وعندما وصلا فعلًا إلى منزل **زين** و**ليلى**، لم تجدا أثرًا لـ **لين**، بل تفاجئا بأنهما لا يعرفان عنها شيئًا، فقد هربت الطفلة.

لم تتمالك **لاما** أعصابها، وانهالت على **زين** ضربًا، وحاول **أماديوس** – ذاك الوسيم – أن يفصلَ بينهما، لكنه لم يلحق أن يمنعَ الحجارة التي أصابت رأس **زين**.

وفورًا، استدعت **ليلى** الشرطة، فأخذت **لاما** ودموعها وأحزان قلبها.

ظلَّت أيامًا تصارع أفكارها، تنظر إلى سماء الزنزانة المغلقة بأربعة جدران وسقف، لكن قلبها وصراخ روحها اخترقا كل عائق.

اقتربت من المربَّع الصغير الملتصق بالجدار، الذي تتخلله قضبان حديدية لا تمرُّ منها يدٌّ، كان هو منفذها الوحيد للهواء، نظرت من خلاله، لكنها لم ترَ السماء، فقد حجبت الدموع رؤيتها.

كانت تقول: "أريدك فقط أن تسمعَ دموعي، انظر إلى آهاتي، وإلى توجُّعي، ارحمني وارحم تلك الصغيرة، لا تتركها بين أنياب الذئاب البشرية، ارحم ضعفها.. لا تجعلها تسقط كما سقطت أنا."

بعد أن همسَ قلبها بهذه الكلمات، جلست على الأرض، وظلَّت تبكي بصوتٍ ارتجَّت له كل جدران السجن.

وفي أثناء ذلك، جاءت نسمةُ هواءٍ لطيفة، فحرَّكت ورقةً صغيرةً سقطت عند قدميها، تناولتها **لاما** ببطءٍ ويأس، وفتحتها، كان مكتوب فيها:

"لا تخف، لأني معك، وأباركك."

هدأ قلبها، وارتاحت نفسها، وأخذها نومٌ عميق.

استيقظت على صوت الحارس ينادي باسمها، فقد تم إبلاغها بالإفراج عنها بكفالة، وأن هناك من جاء لاستلامها.

نظرت خلفها.. فرأت **أماديوس**، هرولت إليه باكية، ترجوه أن يخرجا سريعًا للبحث عن **لين**.

أخذ **أماديوس** يد **لاما** المرتجفة بين كفيه، وقال بابتسامةٍ دافئة: "سنجدها، أعدكِ بذلك، لكن يجب أن تستعيدي قوتكِ أولًا، من أجل **لين**."

لم تصدِّق **لاما** ما تسمعه، كأن صوت السماء تجسَّد أمامها في هذا الرجل.

شعرت أن الله لم يتركها أبدًا، بل كان يهيِّئ لها المدد في الوقت المناسب.

خرجت من السجن، تلتفت يمنةً ويسرة، كأنها تتوقَّع أن ترى **لين** واقفة هناك، على الرصيف، لكن لا أحد.

صعدت إلى السيارة إلى جوار **أماديوس**، والدموع لا تزال تجري على خديها، وقلبها يخفق بين خوفٍ وأمل.

قال لها **أماديوس** بهدوء:

- "بدأت أبحث عنها منذ أن أخبرتِني بما حدث، ذهبت إلى الجيران، وإلى المدارس، وحتى إلى المستشفى القريب.. وقد وجدتُ طرفَ خيط."

نظرت إليه بعيونٍ يملأها الرجاء.

قال بهدوءٍ عميق:

-"أظن أنني أعرف إلى أين يمكن أن نذهب."

-"أين؟"

همست **لاما**.

-"كان هناك رجلٌ عجوزٌ على أطراف المدينة، أخبرني أنه رأى طفلةً بملامح تشبهك، كانت تبيع الورود عند إشارات المرور."

ارتجف قلب **لاما:**

-" ورد؟!

لين كانت تحبُّ الورد".

قالتها في نفسها، لكنها لم تجرؤ على التفاؤل؛

فقلبها لم يعُد يحتمل كسرًا جديدًا.

وصلوا إلى شارعٍ ضيق، الأشجار تُظلِّل الأرصفة، والناس يمرُّون مسرعين لا يلتفتون، اقتربوا من زاوية الإشارة.. لا أحد.

تقدَّم **أماديوس** من بائعٍ هناك وسأله عنها، فأشار الرجل إلى زقاقٍ مظلمٍ وقال:

- "هناك، عند نهاية الزقاق، تجلس في المساء، ومعها قطةٌ صغيرة، لا تتحدث كثيرًا، لكنها تبكي أحيانًا بصمت."

ركضت **لاما**، خطواتها كانت ثقيلة، كأن الأرض تمسك بها كي لا تصل، وما إن خطت قدميها وجدت ظلامًا، صمتًا، وبرودة، ثم همسة خافتة:

- "ماما؟"

صوتٌ ضعيف مألوف، تسمَّرت **لاما** في مكانها، كانت هناك

طفلةٌ صغيرة، عيناها غارقتان بالحزن، ترتدي فستانًا قديمًا، تمسك وردةً ذابلة.

اقتربت **لاما** منها، ورفعت وجهها.. لكنها وجدت أمامها طفلةً لا تشبه **لين** تمامًا، تشابهٌ خفيف، نعم.. لكنها ليست **لين،** تراجعت **لاما** خطوةً للخلف، وارتجف صوتها:

"ما اسمك يا صغيرة؟"

قالت الفتاة: "ميراكل".

"أهذا اسمٌ أم رسالةٌ مطمئنة من السماء؟"

هكذا همست **لاما** في داخلها، وفي تلك اللحظة، وصلت رسالةٌ إلى هاتف **أماديوس** من رقمٍ مجهول:

"لين ليست هنا، لكنها بخير، لا تبحثوا عنها، ستجدكم عندما يريد الله ذلك."

تبادلت **لاما** و**أماديوس** النظرات، أيعني ذلك أن **لين** ما زالت حية؟

أم أنها لعبةٌ من القدر؟

وفي السماء، كانت سحابةٌ بيضاء تتحرَّك ببطء، وملصقٌ صغير يتطاير على الرصيف، كُتِب عليه:

"سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا."

ثم اختفى خلف عربةٍ تمرُّ، واختفت معه كلُّ إجابةٍ.

زفّة إلى المجهول

القصة ١

أمسك يدها بحنان، وسلَّمها لعريسها بابتسامةٍ فخور، وهمس: "كوني سعيدةً، يا ابنتي."

تمرُّ الأيام، ليقف أمام قبرها، يردِّد الكلمات ذاتها، لكن بصوتٍ مكسور، ودموعٍ لا تتوقّف.

القصة ٢

وضع يدها في يد عريسها، قائلًا: "اعتنِ بها."

بعد أيام، كان يحثُّ تراب قبرها، هامسًا: "اعتنِ بها، فلعلك تكون أحنَّ عليها ممن هم فوقك."

القصة ٣

"يا ابنتي، تذكَّري جيّدًا، أنا لن أتخلَّى عنكِ يومًا، سأبقى دائمًا سندكِ وظهركِ في هذه الحياة، مهما تغيَّر كلُّ شيءٍ من حولكِ، لكن تذكَري أيضًا، أن الطاعة لزوجكِ هي طريقكِ للسلام، فكوني له كما أحببتُ أن أراكِ دائمًا؛ عفيفة، حكيمة، مطيعة."

انفجرت بالبكاء، وحاولت أن تخبره أنها لا تريد الرحيل، وأنها لا ترى في هذا العالم مَن يستحق حبها سواه، ضمها إلى صدره بقوة، وكأنه يحاول أن يحميها من الفقد، لكن ما لم يُدركه، أن آخر ما احتواه بين ذراعيه لم يكن إلَّا جسدها، أما روحها، فقد رحلت.

القصة ٤

ارتدت فستانها، فبدت كأميرةٍ خرجت لتوَّها من حكايات ديزني، كانت بين يدي والدها، تنظر إليه بعينين تترجَّيان ألَّا يتركها، وقد اغرورقت بالدموع، خفض عينيه خجلًا، وأخذها ليسلِّمها لعريسها.

وبعد أيام، كان يستلم كفنها، لم يدرِ أنه حين سلَّمها يومها، كان في الحقيقة يقتادها إلى الموت.

صوت صُراخ في زمنِ الصمت

قُصِفَت دارهم، وبقي صوت صراخهم يرنُّ في الآذان، كلما حان وقت الأذان.

أأنا لست أنا؟!

صوته دائمًا يبكي، وصوتٌ أعلى من صوت بكائه يصيح، لا أعلم مَن هذا، ولا مَن تلك التي علا صوتها على صفير البوق، لا أدري ما هذه العمارة الغريبة وساكنيها الأغرب.

استيقظت صباحًا على صوت بائع الخضار، ومعه عربته المليئة بالخضار، ها هو الآن، صوت جارنا يعلو أمام زوجته؛ فهي دائمًا لا تهتم بكيِّ ياقات قمصانه، تركت غرفتي، وتركت معها جارنا وزوجته وياقة قميصه، لأستعد للخروج، وإذ بي أفزع من صوت جارتي يخترق شباك الحمام، وهي تنادي بصوتٍ كنعِيق البوم على ابنها الصغير ليخرج من الحمام، أظنه يجد راحته وهدوءه وسكينته بعيدًا عن صخب منزله، ولكنه لا ينعم بها، فتأتي والدته بأعاصيرها وبراكينها لتفترسه!

بعدما ارتديت ملابسي وفتحت باب الشقة وهممت بالخروج، فإذا بكرَةٍ مندفعة مرت كالصاروخ من أمامي لتصطدم بباب شقة جاري، الأستاذ

زين، الرجل المخيف شكلًا وموضوعًا، ففتح بابه بعنف ونظر نظرة رعب.

في تلك اللحظة، لم أجد أحدًا من الأولاد الذين كانوا يلعبون؛ وكأنهم ارتدوا "طاقية الإخفاء"!

لم يتحدَّث، لكنه رمقني بنظرة لم أفهمها.

نزلت بخطى سريعة على سُلّم العمارة التي يعاني مصعدها من عطلٍ مزمن، وعند بوابة المدخل، وقبل أن أخطو خطوة خارجًا، سُكب ماءٌ أمامي؛ لو كنتُ قدَّمت قدمي، لتحمَّمتُ بذاك الماء المتسخ من تلك السيدة بائعة الخضار!

ذهبت في طريقي إلى العمل في إحدى شركات السياحة، هذا أول يومٍ لي في هذا الصرح الضخم، الجميع يجري هنا وهناك؛ منهم مَن يحمل أوراقًا، والآخرون يتحدثون في الهاتف، عامل البوفيه يجري ذهابًا وإيابًا، يحمل مختلف المشروبات.

دخلت مكتبي، وكان معي اثنان آخران من الزملاء؛ أحدهما يتودد إلى النساء من هاتفه، والأخرى تهتم بأناقتها بشكلٍ مبالغٍ فيه.

مرَّ يومي ولم يكن سيئًا، ولكنه كان مرهقًا شيئًا ما، عدت إلى منزلي، وأحضرت وجبة الغداء، وفي أثناء تواجدي في المطبخ، سمعت صوت أواني جيراني واحتكاك الملاعق بها، وما أجمل أن تتذوق بأنفك طبق "المقلوبة"، و"ورق العنب" الذي يناديك لتستطعمَه!

وصوت أقدام الأولاد وهم عائدون من مدارسهم، وأحيانًا صوت شجارهم في الشارع.

جلست بمفردي أتناول طعامي، وبينما كانت أذني تلتقط صوت لَمَّة العائلة من فوقي ومن تحتي، وحين شارفت الساعة على السابعة، أشعلت تلفازي لمتابعة مسلسلٍ يُعرَض دائمًا على قناتي المفضلة، خرجت إلى البلكونة لأمتِّع عينيَّ بمنظر أولئك الذين غطَّى الشيب رؤوسهم وهم يمررون زهر الطاولة، ويأتيهم النادل بالينسون والشاي، وجارتنا تتحدث مع

الأخرى، وكلٌّ منهما في شرفتها، وتأخذهما الحكايات، وأذهب معهما داخل تلك القصص، وأستمتع دون أن يلفظَ فمي بحرف.

وبدايةً من الساعة العاشرة مساءً، لن تجد أحدًا في الحارة، ولا تسمع لأي شخصٍ صوتًا، فإن رميت دبوسًا ستسمع صداه، أجواءٌ دافئة، رغم وحدتي إلا أنني كنت أشعر بالأمان وأنا في وسطهم، وهكذا ظل يومي يتكرَّر كل يومٍ بنفس أحداثه حتى أتى يومٌ..

استيقظت من النوم لأجد لا أساس لما كان يتكرَّر بشكلٍ يومي، حتى الحارة لم تعد حارة، وخُيِّل إليَّ الوهم أنني ضللت الطريق، وقدماي أخذتني إلى مكانٍ آخرَ لا أعرفه ولا علاقة لي به.

شكل منزلي اختلف، لست بمفردي، فوجدت أشخاصًا معي، عرفت لاحقًا أنهم أسرتي (أبي وأمي، وهند أختي).

كيف أتيتم؟!

ومَن أتى بكم؟!

أين المكان والزمان الذي أعيش فيه؟!

أسئلةٌ ظلت تتوافد على عقلي، ثم سمعتُ خلسةً حديث أمي لأبي وهي تخبره أن ميعاد الطبيب الذي يتابع حالتي اليوم!

ماذا؟!

أنا مريضة؟!

توجَّهت مسرعة نحوهم، وأخبرتهم أنني على ما يرام ولست بحاجةٍ إلى طبيب، يكفيني النزول للسير قدمًا في حارتنا في يافا؛ فهذا يُحسِّن كثيرًا من صحتي.

فقال لي أبي:

"أين هي يافا؟ نحن نسكن الآن في أريحا؛ فقد قُصِفت يافا".

في ظلِّ المحظور

أحبَّته، وكانت تعلم أن الخطأ يداهمها من جميع الاتجاهات، كانت تُبحر في عينيه ولم تخشَ الغرق، رغم جهلها بطرق النجاة، دائمًا ما كانت تنتظر سماع كلماته، وتنظر إلى شفتيه لتقرأ كلَّ كلمةٍ يلفظها قلبه قبل لسانه، وتحتفظ بها بين ثنايا روحها، أرادت لو فتحت سراديب قلبه لترى كم المساحة التي تشغلها بين شرايينه، تمنَّت لو تمكَّنت من قراءة أفكاره؛ لترى كم مرةً ذكر اسمها في عقله، وكم سطرًا حمل صفاتها.

ومع عزفه لها بأعذب ألحان الحبِّ، ومع لمعة عينيه المخصَّصة لها فقط، وكأنهما لا تلمعان إلَّا لها.

ليس هذا فقط، بل وضع تحت قدميها وقته بأكمله، وبالرغم من كلِّ هذا، إلَّا أنها أرادت أن تُسهبَ وتتمعَّن أكثر لتكتشف بنفسها، وما اكتشفته وضعها في قائمة المحظورين، فكيف لها أن تجتمع معه وهو زوجٌ لفتاةٍ مسيحيِّة؟!

وردةٌ تحت الركام

نقطة تحوُّل

أرادت أن تنتقمَ، لا تعلم انتقامها ممَّن تحديدًا؟!

أهو انتقامٌ من نفسها، أم من الزمن، أم من أشباه الرجال الذين أذلُّوها وفعلوا بها ما فعلت إسرائيل بفلسطين؟!

ولكن كل ما تعلمه أنها هنا، في ذاك الوكر القذر، مليئةٌ بالأوساخ والذنوب.

جلست تنتظر.. مَن يا تُرى الآتي؟!

ظنَّت أن قلبها هو الذي ينبض بصوتٍ عالٍ، لكنها أدركت أن هذا الطرق على باب الحجرة، ليظهر أمامها رجلٌ في سنِّ الستين، وهي لم تتجاوز الثالثة والعشرين من عمرها، فعل بها ما فعله غيره، وترك لها مثلما يترك غيره.

ليلُها حزين، تتناثر أمامها الذكريات كما تتناثر النجوم في السماء، كانت دائمًا تردّد: "ارحموا عزيزَ قومٍ ذُلَّ".

فهي من عائلةٍ ذات شأنٍ عظيم، توفِّي والداها في حادثٍ، وكانت هي وريثتهما الوحيدة، ولم يرحمها أحد، حتى الأقارب نهشوا لحمها وهي حيَّة، أخذوا كل ما ورثت، وأخذها عمَّها ليعتني بها، فذاقت الألم كؤوسًا، استعبدوها وأهانوها.

هنا كان لا بُدَّ أن تتخذ قرارًا بالذهاب دون عودة، إلى أين؟ لا تعلم، ولكن قرار الرحيل لا بُدَّ منه.

وفي ليلةٍ مضيئةٍ بنور القمر الهادئ الذي هداها وأنار طريقها، لكنه أنار أيضًا لمتشرِّدي الطريق، فاهتدوا إليها، ولم تسلم منهم ومن شرِّهم، مزَّقوا ثيابها وتذوَّقوا طعم جسدها.

لم تجفّ دموعها، ورفعت عيناها إلى السماء، وعلا صوت عتابها، وشقَّ السبع سماوات، وبكت السماء معها، وكأنها تشاركها ألمها، واختلط المطر بدموعها، إلى أن وجدتها امرأةٌ وأشفقت عليها، فأخذتها إلى مسكنها، وألبستها ما يسترها، وأشبعت جوعها، وعالجت جروحها الجسدية، ولكن..

حطَّمت ما تبقَّى من روحها، لم تكن رحيمَةً بها مجّانًا، بل استغلَّت جمالها لتجعلها تحت يديها في البغاء!

ظلَّ حالها هكذا لسنين، فكَّرت كثيرًا في الهروب، لكن إلى أين تهرب؟!

وإن هربت، فسيحدث معها مثلما يُفعَل بها هنا، الفرق أن الشارع بالمجَّان، أما هنا، فهي لها شأنها وزبونها؛ فهناك الكثير من الرجال الذين يأتون خصيصًا لأجلها، ويدفعون الكثير من الأموال، وأحيانًا ذهبًا، من أجل قضاء ليلةٍ واحدةٍ معها.

عاشت جزءًا من حياتها كريمة، والباقي ذليلة، إلى أن حدث في يومٍ، وانقلبت أحوالها رأسًا على عقب، أتاها شابٌّ كان يسمع عن جمالها، وقرَّر أن يذهبَ ليرى تلك الفتاة التي ذاع صيتها في أرجاء المدينة، رغم عدم امتلاكه إلَّا القليل من المال اليومي، إلَّا أنه أخذ كل ما ادَّخره من مالٍ كان يتركه ليومٍ تشتدُّ إليه حاجته، جمع أمواله وذهب ليعطيها لصاحبة الكار، واختار أن يكونَ مع الفتاة التي ذاع صيتها في الآفاق، ثم دخل حجرتها، ورأى فتاةً جمالها يُبهِر الأعين، نظر إليها، وبدأت هي في إظهار مفاتنها وأنوثتها، ولكنه لم تهتز منه شعرةُ رأسٍ واحدة.

كادت أن تجنَّ!

من أين له هذا الثبات؟!

إذن، لماذا أتيتَ ما دمتَ لم تقترب مني؟! — سألته متعجِّبة.

فقدَّم لها جملةً غيَّرت حياتها منذ ذلك الحين، إذ قال لها:

"ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟"

المرآة التي لا تعكسني

مازالت هناك آثار لأصابع يدٍ على وجهي!

ومثلها في أماكن متفرِّقة من جسدي، تركت بصمتها على جسدي الهزيل، ووضعت ندبتها داخل قلبي، بل وروحي أيضًا.

تسلَّلت خفيةً إلى خارج حجرتي، فرأيت امرأةً أيقنتُ أنها أمي، وقد انهالت بوابلٍ من الشتائم والكلمات الغريبة على أذني.

أنا ضعيف، لا أملك سوى البكاء، حتى كلماتي لا يسعفني لساني لأُخرِجها، فتتلعثَّم وتتخبَّط جميعها لتخرج غير مفهومة، غير واضحة.

كنت أبحث عن الرحمة في عين أحد، حتى إخوتي مارسوا إسقاطهم عليَّ، أنا لا ألومهم، بل أشفق عليهم كثيرًا، فقد عانوا كثيرًا وما زالوا، وكلما كبروا زاد تمرُّدهم، وبالتالي زادت الخلافات والإهانات.

ليس ذنبي أني طفل أعاني من فرط الحركة، وربما صاحبه بعض التشتت في الانتباه، أعتقد أن هناك سِمةً ما تميِّزني، إلا أنها رفضت أن ترى مميزاتي.

أنا أريد ذاك الحِضن الدافئ الذي يتوارى داخله الأبناء، حمايةً من كل ما هو مقلق أو مُريع.

بعد رحلةٍ طويلةٍ مع دموعي، ارتميتُ داخل أحضان تلك الطاقة السلبية التي ابتلعتني، وأغلقت أفواهها على رقبتي، ولم أستطع الفكاك منها، حينما عدتُ مرةً أخرى إلى حجرتي، وجدتني واقفًا أمام المرآة، وما زلت أُحدِّق فيها، إذًا.. مَن الذي كان بالخارج الآن؟!

مَن يتحدَّث الآن؟!

أهذا شبحي؟!

النداء الملعون

نظرتُ إليه ووجدتني داخله حورية تتراقص فوقه، ثم تختفي في أحضانه.

شكله مثير، خُيِّل إليَّ أن أتوجَّه إلى الداخل، وأفعل مثلما تفعل حوريتي، شيءٌ ما يجذبني لفعل هذا، لكني أخشاه، فالغدر رفيقه، لا أعلم متى سيخونني.

ووجدتُها تناديني لأقترب أكثر، ولكن أمي تحذِّرني من أن أغوصَ أكثر، وأخبرتها أن هناك مَن يناديني، انقبض قلب أمي، أكاد أكون سمعتُ نبضاته السريعة الخائفة.

- "لا، ليس هناك أحدٌ، لا تستمعي، ولا تنجرفي وراء لا شيء".

قالتها أمي بفزع.

- "لن أذهب، اطمئني".

أخبرتها ذلك بينما كانت عيناي شاردتين داخله بعيدًا.

بعد أن قاربت الشمس على الغروب، توجَّهنا جميعًا إلى منازلنا، وبعد أن تناولَنا طعامنا ذهب كلٌّ منا لحاله؛ منهم مَن يلعب، ومنهم مَن يشاهد التلفاز، والآخرون يتسامرون، بينما خرجتُ أنا لأشمَّ الهواء الذي يحمل نسماتٍ ونفحات النقاء، وأنظر إلى نجوم السماء اللامعة، الحاملة دعوات الناس لتصعدها إلى الله، وإذ بعيني تشرد وتتوه به، مترجِّيَةً بأن يُظهِر لي حوريتي مرةً أخرى، فجمالي لا يُضاهيه جمالٌ في صورتها، وأثناء حديثي، وجدتها تظهر أمامي.. تشبهني، نعم تشبهني كثيرًا.

حاولت أن أتحدَّثَ بصوتٍ عالٍ، لكن صوتي لم يصل، بل هو لم يصل لي، فأنا لم أسمعني، اقتربتُ قليلًا حتى وصل الماء إلى منتصف قدمي، وأخذت أتحدَّث مرةً أخرى، لكن لا أعلم.. أأصابني الخرس أم زارني الصمم؟!

تمد يدها لي، وأنا أنجذب لها، وأشعر بالأمان كثيرًا في نظراتها وبراءتها، رويدًا رويدًا، وجدتني أتعَمَّق أكثر فأكثر، إلى أن قاربت يدي من لمس يديها.

اقتربتُ منها حتى كدت ألامس أطراف أصابعها..

لكن فجأة، تغيَّر كل شيء؛

الماء الذي كان دافئًا صار باردًا كالثلج، والهدوء الذي كان يلفّ المكان انقلب إلى صمتٍ خانق، وكأن الدنيا حبست أنفاسها بانتظار ما سيحدث.

ابتسمت الحورية ابتسامةً لا أعرف إن كانت دعوة أم فخًا، وعيونها تلمع بوميضٍ غامض، لم أعد أرى من حولي.. لا النجوم، ولا الشاطئ، ولا حتى ظلي، كان كل ما أمامي هو هي.. وعمقٌ لا نهائي يبتلع الأفق.

حين لامست يدي يدها، شعرتُ بتيارٍ كهربائي يجري في جسدي، خطف أنفاسي وجعل قلبي يخفق بجنون، لكن فجأة، وجدت شيئًا يلتف حول كاحلي، التفتُّ في رعب، فرأيت خيوطًا سوداء تخرج من أعماق الماء، تلتف

حولي ببطءٍ، وكأنها أذرعٌ خفية تريد سحبي للأسفل، رفعتُ عيني نحو الحورية، فوجدت ملامحها تغيَّرت، براءتها ذابت، وابتسامتها تحوَّلت إلى مكرٍ بارد، وعيونها الآن كالبحر في ليلةٍ عاصفة، بلا شاطئ ولا أمان.

همست بصوتٍ يختلط فيه العطف والوعيد:

"أنتِ دعوتِني.. والآن، عليكِ أن تأتي".

شعرتُ بالماء يعلو على جسدي، وبرئتي تضيقان، لكن جزءًا مني كان مشدودًا إليها، عاجزًا عن المقاومة.. وكأنني انتظرتُ هذه اللحظة طوال حياتي.

الماء صعد حتى غمر كتفي، والأذرع السوداء تزداد إحكامًا حولي، بينما عيني لا تفارق عينيها، اقتربت مني حتى صار وجهها على بُعد أنفاس، ثم همست بصوتٍ جعل جسدي يقشعر:

"أنا.. لستُ حورية، أنا تؤامك التي تركتكِ منذ سنين وابتلعتها الأعماق".

ارتجفت، لكن قبل أن أسأل، مدت يدها ولمست وجهي، فشعرتُ كأنني أنظر في مرآةٍ مائية.

ملامحها كانت تتبدَّل ببطءٍ حتى صارت ملامحي تمامًا، بنفس الابتسامة، ونفس النظرة.. لكن بعينين أعمق، وكأنهما تحملان كل ما دفنته في أعماقي من رغباتٍ وخوفٍ وجنون.

همست مرةً أخرى:

"أتعلمين؟ أنا الجزء الذي حاولتِ دفنه.. أنا رغبتكِ في الهرب، اندفاعكِ، وجموحكِ الذي قتلتِه حين صدَّقتِ كل تحذيرات أمك".

ثم شدَّتني للأسفل، والماء صار أكثر سوادًا من الليل، كنتُ أقاوم، لكن فجأة توقَّفت؛ لأنني أدركت أنني لستُ أغرق.. بل أعود.

آخر ما رأيته قبل أن أختفي في الأعماق، كان جسدي يقف على الشاطئ، يبتسم، ثم يدير ظهره ويرحل.

حان دوري

عثروا بين أوراقه على صورةٍ قديمة، يظهر فيها مبتسمًا وسط أصدقائه، الغريب أن جميع الوجوه كانت ممزَّقة ما عدا وجهه هو، وعندما قلبوا الصورة، وجدوا بخطٍّ مرتجفٍ خلفها:

"لم يبقَ أحدٌ غيري.. والآن حان دوري".

ذات الأربع سنوات

"ماذا تفعل؟!"

قالها أبي، وأنا أحدِّق به.. أنظر إليه، ثم أعود لأنظر إلى السكين الذي أحمله.

أتتخيَّلون؟ طفلٌ في مثل عمري يحمل سكينًا ويقف أمام سرير أمه؟!

طفلٌ لم يتجاوز الأربع سنوات، ولكن ما يحمله في قلبه يمثل همومَ الأربعين.

أخذ أبي السكين من يدي وحملني وخرج بي خارج الغرفة، وكانت يداه ترتجفان، ثم أجلسني أمامه وسألني عن سبب ما رآه.

لا أعلم.. هل كان منتظرًا منِّي ردًّا بالغًا أم ماذا؟

ولكني وجدتني أخبره:

نعم، ما زلت أتذكَّر تلك الإهانة التي رمتني بها أمي، وما زلت أسمع صدى صوت الشتائم التي ملأت بها أذنيَّ، لم أنسَ إسقاط أختي عليَّ.

حينما كنت في الثالثة من عمري، لم تكن مخارج كلماتي وألفاظي جيدة، وحتى الآن أتلعثم كثيرًا، وهذا أثار تنمُّر أصدقائي عليَّ؛ كانت كلماتي مهزوزة ومضطربة، كما كنت أنا تمامًا.. لم يرحموا ضعفي، ولم يرحموا خوفي.

لم أكن طفلًا هادئًا، بل كنت كثير الحركة، هم أرادوا لي البقاء صامتًا دون حراك، لكني لم أستطع فعل ذلك، انهالوا عليَّ بالطاقة السلبية، ولم يهتمّوا بأن لديَّ نفسًا تريد أن تترمَّم، والدتي كانت ترى أنه من الطبيعي أن تؤدِّبني بالضرب، مثلما فعل أجدادي معها، هي ترى أن الجميع تربَّى هكذا، نعم.. أسمعها دائمًا تقول لجدَّتي وعمَّتي:

"وإيه يعني؟ ما أهلينا كانوا بيضربونا، وطلعنا أهو متربِّيين وأحسن ناس".

أردت إخبارها أني لا أرى تربيةً جيدة فيها؛ فمعاملتها معي ومع أختي لا تشير إلى ذلك، فقد خلت من الإنسانية وتجرَّدت منها.

كانت جدَّتي (والدة أبي) تعنِّفها لما تفعله معنا، لكن أمي دائمًا ما كانت ترفض الاستماع لها.

أنا لا أستطيع الحديث مثل بقية أصدقائي الذين في نفس عمري، أنا خائف، وهذا ما يجعلني أتلعثم في الحديث، أصبحت أكره ذاتي، فأنا لا أجيد سوى البكاء، أردت فقط أن تحتضنني أمي، مثلما تحتضن عمَّتي أولادها.

كثيرًا ما كنت أختلس النظر إليهم حينما يأتون عند جدَّتي، من وراء الباب أو حينما أختبئ خلف الحائط، كنت أحبُّ لُعب العمَّة معي، وأحبُّ حضنها لي، مع أنني كنت أفرُّ هاربًا منه؛ فأنا أخاف أن أعتادَ ذاك الحضن ثم أستيقظ يومًا ولا أجده.

ترى، بماذا يشعر المرء حينما تحتضنه أمه؟

هل حضن الأم يختلف عن حضن الأب أو الجدِّة؟

أنا أعشق حضن جدتي الذي يزيل جبال الهموم التي راكمتها أمي عليَّ، وأعشق حضنك يا والدي، الذي أشعر بداخله بأمانٍ يحميني من آلام

اليوم وعذاباته، فأنا أخلع إهاناتي اليومية خارج حضن أبي؛ احترامًا لقدسيَّة المكان الذي سأختبئ داخله.

لا أريد أن أكبرَ؛ فأنا لم أنعم بكوني طفلًا، وأريد أن تعودَ أمي طفلةً؛ ليفعل معها أبواها مثلما تفعل هي معي، وتشعر بما أشعر به، ونكبر سويًّا حتى لا ترمي عليَّ ما فُعِل بها.

ولكن.. مَن أدراني؟

فبالتأكيد ما تفعله معي قد مرَّ عليها، وهي أرادت أن تسقيني مما ذاقته هي، ولكن هذا ليس ذنبي ولا خطئي، لم أقل لوالديها أن يُمارسا معها الأذية النفسية.

آه يا أمي، لو تعلمين أني أنظر إلى كلِّ طفلٍ تشجِّعه أمه وتمنحه الثقة!

آه لو تعلمين أن قلبي يرتعد خوفًا في كلّ مرةٍ أسمع فيها تهديداتك ووعيدك!

آه لو عرفتِ أني طفلٌ جميل، أردت فقط أن تتحمَّلي شخصيَّتي، وتحتضني مساوئ طبعي!

أنا أشفق عليكِ؛ لأني لا أعلم إلى أيِّ مدى سأكون سيِّئًا حينما أكبر، أنا الآن أبحث عن ذاتي، وأريد أن أجدَني، أنا أخاف عليكِ مما زرعته يداكِ.

أتدري يا والدي؟ إنه في يومٍ سمعتُ خالتي تتحدَّث إلى أمي وتحذِّرها ألَّا تذيقنا ما ذاقته هي من والدتها، وذكَّرتها بأنها كانت تذهب إلى طبيبٍ نفسيٍّ لوقتٍ طويلٍ؛ حتى تُرمِّم بعضًا من نفسيِّتها.

اندهش أبي كثيرًا من طريقة حديثي، ولكن الاندهاش الأكبر حينما كان يسمع صوتي هذا خارجًا من مجرَّد صورةٍ لي وُضعِت على مكتبه..

فقد أصبحت غير موجود، كيف له أن يستمعَ إلى صوت طفلٍ مات مُنذُ أربعين يومًا؟!

لستُ كما تظنَّ

كانت تأتي دائمًا، تجلس في إحدى زوايا الكافية دون أن تنطقَ أو تتحرَّك، وكأنها أسيرة طقسٍ خاصٍ بها، لا ترتدي إلا الأسود، وموضع كرسيها كان أمام البحر مباشرة، ظهرها للمارة من الكافية، وكأنها لا تريد أن ترى بشرًا، اعتاد أدهم أن يتناول قهوته صباحًا في نفس المكان، ولاحظ وجودها مُنذُ عدة أيام، وتملَّكته الدهشة عندما رآها على نفس ذاك المنوال دون تغيير، فأخذه فضوله ليعرف ما سرِّها، وما شكلها، فاتخذ من الطاولة المجاورة استراحةً له، وجلس بطريقةٍ عكسها، فقد كان ظهره للبحر، فلمح وجهها..

عيناها جاحظتان نوعًا ما، وجهها يتملَّكه الشحوب، شفتاها لم يسقياها الدم.. لم يستطع أن يحدِّدَ هل هي جميلة أم مقبولة أم عادية.

الغريب أن هناك شيئًا ما يدفعه لاكتشافها، ظل الوضع هكذا أيامًا وأسابيع، إلى أن قرَّرَ أن يأخذَ تلك الخطوة، ويسأل النادل عمَّن تكون هذه.. لكنه تراجع، ورأى أن يبدأ هو بالحديث معها.

"صباح الخير؟"

نظرت له وابتسمت ابتسامة حزينة ولم ترد بشيء، ثم نظرت أمامها مرة أخرى.

"ممكن نتكلم شوية إذا سمحتي؟"

وجَّهت رأسها تجاهه مرة أخرى، ثم حوَّلت نظرها لطاولات الكافية.

"آه فهمت.. طيب، تسمحيلي أوصلك لأي مكان ونتكلم في عربيتي شوية؟"

ابتسمت، وقامت تتحرَّك بخطوات ثابتة وبطيئة نوعًا ما، ثم استقلا السيارة بعدما ترك أدهم حساب القهوتين على طاولتها.

ظل يتحدث إليها كثيرًا، لكنه لم يستقبل أي ردٍّ منها، مما زاد من دهشته كثيرًا، وخُيِّل إليه أنها بكماء، ثم طلبت منه بإشارة يد أن يقفَ في مكانٍ ما، ابتسمت له ابتسامة هادئة حزينة، صاحبتها دمعة شقت عيناها لتتخذ طريقها إلى خدها، تأثر أدهم، لكنه لم يعرف ماذا يفعل، فهي لا تريد التحدُّث.

في صباح اليوم التالي، ذهب أدهم، لكنه لم يجدها، فتناول قهوته، وأخذ سيارته وانطلق حيث انتهى بهما الطريق بالأمس، فوجدها هناك، أوقف سيارته، وكانت يداه تستدعيانها لتأتي بجواره، ركبت سيارته، وأخذا يتجوَّلان دون كلمة، ثم أعادها إلى حيث كل مرة، وقبل أن تتركَه همست له لأول مرة:

"أنا مش زي ما أنت فاكر".

وتركته وغابت سريعًا عن عينيه.

معذرة فالطاولة محجوزة

قرَّر أن يتوجَّه نحو الكافية ليعرف مَن هذه الفتاة، وفور وصوله:

"علي، يا علي!"

"نعم يا عماد باشا، آمِرني".

"في بنت بتقعد هنا كل مرة بس مجتش إمبارح، إيه حكايتها ومين دي؟"

"هي مين دي يا باشا؟ مفيش حد بيقعد هنا، الترابيزة دي بالذات محدش يقدر يقعد عليها".

جحظت عينا عماد:

"يعني إيه محدش يقدر يقعد عليها؟ أنا بشوفها كل يوم هناك على الترابيزة دي! وليه أصلًا محدش يقدر يقعد عليها؟!"

"الترابيزة دي من سنين كانت بتيجي تقعد عليها واحدة اسمها لبنى، أستاذ حسام -صاحب الكافية- أُعجَب بيها واتجوزها، وعاشوا خمس

سنين مع بعض، لحد ما في يوم، مدام لبنى كلَّمتني وقالتلي: "احجزلي ترابيزتي النهارده، عندي احتفال صغير..

جهَّزتلها الترابيزة، ولقيناها جاية لابسة فستان أسود شيك جدًا، هينطق عليها، وكانت جميلة بزيادة أوي في اليوم ده، ولقينا أستاذ حسام دخل بعدها بربع ساعة، وندهت على كل الستاف، وكان في زباين موجودين كمان.

وقفت فوق الترابيزة وقالت: النهارده يوم مش عادي بالنسبة لي، النهارده يوم اعترافي إني حبيت إنسان واتجوزته، بس طلع ما يستاهلش، طلع أقل بكتير من إنه ينول شرف تواجده في حياتي؛ لأنه إنسان خاين، وعشان كده أنا قررت إني مش ههني أي راجل خاين بحياته، ولقينا صور كانت متصوِّرها وهو بيخونها، نازلة علينا زي المطر، ونطّت مدام لبنى من الشباك الإزاز ده، واختفت وسط البحر..

كانت جميلة وطيِّبة وكريمة معانا، وبتطيِّب خاطرنا دايمًا".

شحب وجه عماد وقاطعه:

"أيوه، هه، كمِّل.. إيه حصل بعدها؟"

"من بعدها، أستاذ حسام دخل في دوَّامة اكتئاب كبيرة، وحظر علينا أي حد يقعد في مكانها ده، والترابيزة دي مخصَّصة ليها هي بس".

كاد عماد أن يفقد صوابه:

"يعني إيه؟ يعني إللي أنا شوفتها دي مش إنسانة؟ واحدة ميتة؟! شبح؟ طب وظهرتلي ليه؟! أنا هخون مين؟! أنا ما خُنتش حد!".

أخذ مفاتيحه وهرول سريعًا خارجًا، يتصبَّب عرقًا، ليجدها واقفة أمامه بنفس ابتسامتها الحزينة..

فيسقط مغشيًّا عليه.

من أجلهم

لم أفعل ذلك بدافع الجريمة، بل كان الهدف أسمى، ترى مَن سيفهم ذلك؟!

رأيتهم بعينِ رحمةٍ، بعينِ إنسانٍ، بعينٍ متحنِّنة، أما هم فلم يروهم من الأساس.

هم لا حول لهم ولا قوة، حاولوا أن يتقدَّموا خطوة، لكن هيهات..

هم غير مرئيين، أو ربما كانوا وسيلةً ليتصاعد الآخرون على أكتافهم.

لذلك أنا هنا.. أنا اليد التي ستنتشل تلك الأرواح التي تتساقط في صمتٍ، لم أفكِّر في خطيئتي بعين الدين، ولا بروح المجتمع، بل بنبض الإنسانية، لا أعلم ما الحكم الذي ينتظرني، لكني أثق أني أنتزعهم من فم الفقر، هم أناسٌ يستحقّون العيش، لا أطلب لهم الحياة المرفَّهة، لكن فقط أريد إهداءهم حياةً كريمة، لكن سلبتُ من غِناهم القليل، لكنه كان

عندهم كثيرًا، لم أفعلها بدافع السرقة، بل بدافع جوعٍ آخرَ.. جوع الفقراء الذين لفظهم النسيان.

أتساءل.. هل ستُسجَّل هذه في صحيفتي كخطيئةٍ بيضاء؟

أم أن الحساب الحقيقي سيكون عليهم.. أولئك الذين تشبَّثوا بنعيمهم حتى العمى، فلم يحنوا رؤوسهم قليلًا ليروا مَن يقفون على حافة الفناء، يمدُّون أياديهم المرتجفة نحو لا شيء.

كانوا يرونهم، لكنهم لم يروا، يسمعون أنينهم، لكن الصمم كان أرحم من أن يعترفوا به، وأنا.. كنتُ اليد التي امتدَّت، لا لنهبٍ، بل لانتشال أرواحٍ تتساقط في صمتٍ، لكن يراودني سؤالٌ واحد، يطاردني كظلٍّ، حين يحين الحساب، في أي صفٍّ سأقف؟ في صفِّهم.. أم في صفّ من سرقتُ من أجلهم؟

تحت رماد الأمان

ظلُّه الذي كسرها، لم تكن زوجةً عادية، كانت امرأةً تنبض بالعطاء، تبني بيتها كما تُبنَى وردةٌ في عزِّ الشتاء، تحيط زوجها بحبٍّ يشبه الدعاء، وتمنحه من قلبها وطنًا صغيرًا لا تزعزعه الرياح، لكنه لم يُقدِّر ذلك، ولم يرَ فيها سوى حضورٍ مألوفٍ وجدرانٍ اعتاد على وجودها.

كانت عيناها تلمع كلما دخل، لكنها لم تلمح في عينيه ذلك الوميض ذاته منذ شهور، كانت تُبرِّر الغياب، وتبحث عن أعذار تُسكِت قلبها، حتى جاء اليوم الذي لم يترك فيه مكانًا للشك؛ وجدت ليلى رسالةً، ثم أخرى، ثم صورًا، فأدركت أن "كريم" لا يكتفي بخيانتها فحسب، بل بنى عالمًا موازيًا لا يشبهها فيه شيء.

سألته فأنكر، ثم صرخ، ثم رمى عليها خطيئته وقال: "كنتِ كثيرًا.. ولم تعودي تكفيني."

انكسر شيءٌ في داخلها، لم تبكِ أمامه، لكنها شعرت بأن صوتها فقد طريقه، وأن الأرض تميد تحت أقدامها.

منذ تلك الليلة، لم تعد تنام، صار الليل ثقيلًا، وأصوات قلبها ضجيجًا يُربك عقلها، بدأت تنهار ببطء، نوباتُ هلعٍ، وقلقٌ مستمر، وفقدانُ شهية، وصمتٌ طويلٌ قاتل.

راودتها أفكارٌ لم تعتدها، وأصبحت سجينة حكايةٍ لم تختر فصولها. زارت طبيبًا بعد ضغطٍ من أهلها، فقال لها" :أنتِ تعانين من اضطراب ما بعد الصدمة.. خيانةُ الحبيب أحيانًا تفعل أكثر من الموت."

كانت تتساءل كل ليلة: كيف يمكن لِمَن احتضن قلبك أن يطعنَه بيديه؟ كيف يتحوَّل الأمان إلى سلاح؟

لكن رغم الانكسار لم تمت، كانت تنهض كل مرة، ولو زاحفة، تتعثَّر في ظلِّه، لكنها لا تسقط للأبد، عرفت أن الشفاء لا يعني النسيان، بل أن تتعلَّم كيف تعيش رغم الذكرى.

وفي أحد الأيام، نظرت إلى المرآة وقالت لنفسها:

"ربما لم أكن كافيةً له، لكنني كافيةٌ لنفسي."

مازال ينبض

لم تكن ندى تهتم لذلك الصندوق القديم المُلقى عند باب البيت، صدأٌ يصيبه، وترابٌ يغطيه، ومنذ زمنٍ لم يعد أحد يكتب رسائل ورقية، لكنها احتفظت به لأنه آخر ما تبقَّى من قدسية أبيها الراحل، الذي شهد من خلاله قصةَ حبه لأمها.

وفي يومٍ، وبينما كانت تهبط الدرج مسرعة، انتبهت أن باب الصندوق موارب، ارتجف قلبها وهي تفتحه، لتجد رسالةً قديمة داخل ظرفٍ أصفر باهت، ارتعشت أناملها وهي تفكُّ الطيَّات:

"شيءٌ في داخلي يدفعني أن أكتبَ لكِ، لا أعلم إن كنتِ ستعرفينني، لكني واثق أن قلبي سيقودني إليكِ، كما قادني إلى عنوانكِ، لماذا لا تراسليننني مثلما أفعل؟ لديَّ أيضًا صندوق بريد."

تجمَّدت ملامحها، شحب وجهها، فلقد كان مكتوبًا بخطٍّ لا تتذكَّر أنها رأته من قبل، ولكن صياغة الكلام ليست بغريبةٍ عليها.

وغَرقت في الأسئلة:

مَن هذا؟ كيف يعرف عنواني؟ ولماذا إليَّ أنا؟

ومع ذلك، تجاهلت الأمر وذهبت إلى عملها، حيث التقت بحبيبها سليم الذي وعدها أن يتقدَّم رسميًا لخطبتها في نهاية الشهر، اتفقا أن يخرجا مساءً، فهي تعشق ليالي ديسمبر.

عادت ندى مسرعةً إلى البيت لتستعدَّ لنزهتها معه، وأثناء عودتها نظرت، وإذا بالصندوق البريدي يحمل ظرفًا آخر، تناولته مسرعةً وفتحته:

"قلبي هو مَن يدلَّني عليكِ.. ابحثي عني، فلربما أنا في أمسِّ الحاجة إليكِ."

أخفت الرسالة في حقيبتها، ورفضت أن تُفسِد مزاجها في ليلتها المُنتظَرة، فلديها ليلةٌ يرأسها كيوبيد.

ارتدت فستانًا منقَّطًا، ووضعت عليه جاكيت جينز قصيرًا، فهي تحب أن تختبئ من تلك اللسعة الخريفية التي تُصيب سبتمبر، وتستمتع ببرودته التي تتسلَّل إلى جسدها تحت ملابسها.

رنَّ هاتفها، وإذا هو سليم، وفي عجالةٍ من أمرها أخذت حقيبتها ونزلت مسرعة.

وتلاحمت الأيادي، وكان لأوَّل مرةٍ تلمس يده يدها، ظلَّا يتحدثان في أمور كثيرة لا عدد لها، حتى تحدَّثا عن اكتمال القمر في تلك الليلة وانعكاس ضوئه على الأشجار، وكأنه يصبُّ نورًا بداخلهم، وعن جمال خطوته على مياه البحر، فهو يتمختر ويتمايل على سطحها، وكأن نور القمر ينافس لاعبي الباليه.

وقفت عند البحر تُسنِد رأسها على كتفه، ووسط ضحكةٍ دافئة أخرجت منديلًا من حقيبتها، فسقطت الرسائل أمامه، فتناولها سليم وسألها:

"إيه ده؟"

قالت له: "نسيت أحكيلك، جوابات لقيتها النهارده في صندوق البريد."

ففتح سليم الورقة وقرأ ما بها، تجمَّد ولم ينطق، وعقد حاجبيه، وانقبضت ملامحه:

"يلا بينا؛ الوقت اتأخَّر".

"في إيه؟ حصل إيه ضايقك؟ أنا عملت حاجة؟"

سألته ندى والخوف بدا عليها.

"لا، ماعملتيش خالص، يادوب بس واحد بيراسلك برسايل، ومن الواضح إنها مش بريئة ووراها معاني كتير مش مفهومة، ولولا الصدفة هي إللي خلتك تقوليلي."

لفظ كلماته والغضب يملأ فمه.

"إيه الكلام إللي بتتَّهمني بيه ده؟ أنا كنت فعلًا هقول، بس نسيت".

اعتلاها الغضب، واحمرَّت وجنتاها من شدة انفعالها.

لكن سليم تركها في تاكسي عائدةً وحدها، لتبكي ليلتها حتى الفجر، وانتهى اليوم نهايةً مغايرةً لتوقُّعاتها تمامًا، وقرَّرت أن تعرفَ مَن صاحب تلك الخطابات، وما علاقته بها، وبالفعل، في اليوم التالي، اعتذرت عن الذهاب إلى العمل، وهذا ما أقلق سليم، لكنه فضَّل أن يظلَّ صامتً،. وذهبت في طريقها إلى مكتب البريد الخاص بمنطقتها، وقصَّت عليهم ما حدث، وأرادت أن تعرفَ من أيِّ جهةٍ تأتيها الخطابات، ونجحت في أن

تعرفَ المنطقة تحديدًا المنطلقة منها الرسائل عن طريق مكتب البريد، وذهبت هناك، لكن الحيرة كانت أكبر من توقُّعها، فهناك الكثير من العمارات والبيوت، كيف ستصل؟

تذكَّرت أن في إحدى الرسائل تمَّ إخبارها بأن هذا الشبح لديه أيضًا صندوق بريد، إذن هي الآن ستبحث عن هذا الصندوق، عند كل عمارة كانت تسأل حارسها:

"هل لديكم صندوق بريد خاص بكم؟"

وكان هناك ردٌّ واحد أجمعت عليه كل العمارات" لا."

أصابها يأسٌ وإحباط، وجلست تبكي في إحدى زوايا الشارع، الآن أصبح شغلها الشاغل أن تُثبتَ براءتها أمام سليم أكثر من فضولها لتكتشف هوية هذا المجهول.

رفعت عينيها إلى السماء وكأنها تطلب معونةً إلهية، وإذا بها تلمح نصف صندوقٍ يختبئ خلف بوابة فيلا فُتِحت قليلًا ليخرج منها حارسٌ ليستقبل عامل توصيل الطلبات، ويحمل عنه أكياسًا ويعطيه نقودًا.

قامت، ونفَضت الغبار الذي التصق بملابسها، وتوجَّهت إليه:

"صباح الخير."

نظر بتعجُّب الحارس الطيِّب العينين، صاحب التجاعيد البارزة في وجهه ويديه:

"صباح النور يا أستاذة، آمري."

"أشكرك، هو عندكم صندوق بريد في البيت هنا؟"

"أيوه، موجود.. بتاع الأستاذ أيمن الشبراويشي."

"الاسم ده مش غريب عليَّ، طب هو الأستاذ أيمن موجود؟"

"موجود، بس أقول له مين؟"

قالت بترددٍ:" ندى، قوله ندى، هو عارفني".

أدخلها عم حسين من بوابة الفيلا لتواجه حديقةً منسَّقة رائعة الجمال، وصندوق البريد مزروعٌ في إحدى زواياها، ووجدت أمامها بابًا شاهق

الارتفاع، دخلت لتجد نفسها في مكانٍ واسعٍ منظمٍ ومنسَّقٍ ومليءٍ بالتُحف الفنية، وبكلِّ شيءٍ قديم.

فهنا هاتفٌ يعود عهده إلى الخمسينيات، وآلة كاتبة عتيقة، وتلفزيون مهترئ قديم.

أجلسها عم حسين إلى أن يذهبَ ويخبر الأستاذ أيمن بزيارتها، أصابها الذهول حينما رأت عم حسين يتقدَّم وبجانبه كرسيٌّ متحرِّك اعتلاه شخصٌ سبعيني.

نظرت له ندى وسألته: "حضرتك الأستاذ أيمن؟"

قال لها: " نعم، أنتِ مين؟ حاسك مش غريبة عليا كأني عارفِك."

"أنا ندى."

"ندى مين؟"

"ندى، إللي جالها جوابات، أظن إنها من البيت هنا عند حضرتك."

شهق بصوتٍ عالٍ: " أنتِ ندى؟! أنتِ ندى سامي أمين؟"

"حضرتك تعرفني؟"

"تعالي يا بنتي، تعالي يا حبيبتي."

"أنا مش فاهمة حاجة.. مين حضرتك؟"

ابتسم بعينٍ دامعة: "أنا إللي شايل جزء من أبوكي الله يرحمه، أنا الشخص إللي إدّولي قلب أبوكي.. أنا إللي شايل قلبه".

سقطت كلمات الرجل عليها كالصاعقة، ركضت نحوه، جثت على ركبتيها، وألقت رأسها على صدره تبكي مرارةَ فقدها لأبيها وفرحةَ سماعها نبضَ قلبه من جديدٍ، تناولت هاتفها وكتبت رسالةً لسليم:

"ابقى تعالى خد حاجتك من عند بابا، بالمناسبة قلب بابا لسه عايش ما ماتش."

أنفاسُ صفحاتٍ

شكله غريب، وكأنه أثري، يشعُّ ضوءًا ضئيلًا بين صفحاته، أخشى أن أتصفَّحه، أهذا كنزٌ تركه لي والدي؟!

قرّر أن يفتحه، ولكن..

لم يستطع فتحه، وكيف سيفتحه وهو به ثقبٌ صغير يشير إلى وجود مفتاح؟

مَن يجده سيساعده على كشف المستور.

ظلَّ يبحث في تلك الحجرة المبعثرة الأشياء، وباءت كلُّ المحاولات، والصبر، بالفشل.

وضع وجهه بين كفَّيه ثمّ تنهَّد، وأثناء ذلك لمح شيئًا ما يشبه مفتاحًا مُلقى في زاويةٍ بجانب الدولاب الكبير الذي حمل ملابسه المبعثرة، توجَّه مسرعًا والتقطه بيدين مرتجفتين، حمل الكتاب بين يديه، وأخذ المفتاح الذي عثر

عليه، كان في البداية يشعر بتوتّرٍ غريب، لكن شيئًا ما في داخله كان يخبره أن هذا هو الطريق الوحيد.

أدخل المفتاح في الثقب، ودار برفقٍ

هذه المرة، شعر بشيءٍ غير عادي يحدث؛ كما لو أن الكتاب تنفَّس هو الآخر.

بدأ الكتاب في الانفتاح ببطء، لكن بدلًا من أن تظهرَ الكلمات المعتادة، كانت هناك صورٌ غامضة، رسومٌ متشابكة كأنها لغزٌ قديم.

في الصفحة التي توقَّف عندها، ظهرت صورةٌ تمثِّل خريطةَ مكانٍ غريبٍ لا يعرفه، ولكن كانت هناك علامةٌ حمراء عند نقطةٍ معيَّنة.

لحظةٌ من الصمت، ثمّ تردَّد الصوت في ذهنه:

"أنتَ الوحيد القادر على فتح هذا السرِّ.. ولكن إن فعلت، ستجد ما قد يغيِّر مجرى حياتك إلى الأبد".

الشعور بالخوف بدأ يزداد، لكنه شعر بشيءٍ أكبر من الخوف، كأن الكتاب كان يطلب منه المضيِّ قدمًا، لم يكن أمامه خيارٌ، وضع الكتاب جانبًا، وأخذ يجهِّز نفسه لما قد يراه.

هل تلك الخريطة تشير إلى مكانٍ قد يكون له علاقةٌ بماضي والده؟

هل هناك أسرارٌ لم تُكشَف بعد؟

هل يُكمَل ما بدأه، أم يُغلق هذا الكتاب، فلربما هذه بداية لعنة ستصيبه؟

ماذا لو حدث؟!

تُرى أيّ طريق يسلكه عزيزي القارئ؟!

دائرتك المجهولة

الجميع في الخارج.. وحدي أنا العالق بالداخل، يطوِّقني الظلام من كل جانب، أبحث عن مخرجٍ فلا أجد، وفي لحظةِ يأسٍ، لمحتُ شيئًا مكتوبًا، فاقتربتُ لأقرأ..

"أهلًا بك في دائرةِ الهلاك، أهلًا بك في عالمِ الاكتئاب".

أسير الحكاية

في حديقةٍ قديمةٍ، يقبع مقعدٌ خشبيٌّ لا يجرؤ أحدٌ على الجلوس فوقه، يمرُّ الناس بجانبه مسرعين، وكأنَّ في قلوبهم اتفاقًا غير مكتوب: **"تجنَّب هذا المكان."**

في إحدى الليالي، دفعتني جرأةٌ غريبةٌ أن أجلسَ عليه، كان باردًا، رغم حرارة الصيف، وكأنَّ الزمن قد توقَّف عنده.

وضعتُ يدي على خشبه المهترئ، فسمعتُ صوتًا خافتًا يشبه الهمس، كأنَّ المقعد يتنفَّس، تجمَّدتُ في مكاني، وارتجفت أطرافي، لكنَّ الفضول غلبني.

جاءني الصوت أكثر وضوحًا:

"هنا جلس رجلٌ لسنواتٍ، يُطعِم الحمام، ويضحك مع الغرباء، ويروي قصصًا للأطفال، لم يعرف أحدٌ أنه كان يبتسم ليُخفي صراعه مع موتٍ بطيءٍ يسكن جسده."

شعرتُ أنَّ قلبي سيقفز من صدري، وحاولتُ أن أنهض، لكنَّ قدميَّ تثاقلت، كأنَّ المقعد يشدَّني إليه.

عاد الصوت ثانيةً:

"في آخرِ يومٍ له.. وضع رأسه هنا، وأغمض عينيه، ورحل مبتسمًا، تاركًا في خشبي بقايا من دفء قلبه."

لم أتحمَّل أكثر، فنهضتُ بسرعة، وإذا بعصفورٍ صغيرٍ يهبط فوق ظهر المقعد، يغرد بمرحٍ، كما لو كان يعرف القصة جيدًا.

منذ تلك الليلة، لم أعد أعبر الحديقة دون أن أُلقي التحية على المقعد؛

خشيةَ أن أبقى أنا أيضًا **أسيرةَ حكايته.**

المحتويات

الإهداء ٥

مقدمة ٧

رسالةٌ لأحدِهم ٩

مالتي إنترناشيونال ١١

ثلاثون ثانيةً للأبدِ ١٧

الصفقة ٢١

حارسُ الحكاياتِ ٢٤

حين استمعتْ لها روحي ٣٢

رحلة إلى ذاتك ٣٣

ميراكل ٣٨

زفَّة إلى المجهول ٥٠

صوت صُراخ في زمنِ الصمت ٥٣
أأنا لست أنا؟! ٥٤
في ظلِّ المحظور ٥٩
وردةٌ تحت الركام ٦٠
المرآة التي لا تعكسني ٦٤
النداء الملعون ٦٦
حان دوري ٧١
ذات الأربع سنوات ٧٢
لستُ كما تظنَّ ٧٧
معذرة فالطاولة محجوزة ٨٠
من أجلهم ٨٣
تحت رماد الأمان ٨٥
مازال ينبض ٨٧

أنفاسُ صفحاتٍ ٩٥
دائرتك المجهولة ٩٨
أسير الحكاية ٩٩